القبض

زنبل (١)

بقلم الأديب حسين شوقى

إذا كان المسيو هريو الوزير الفرنسى الكبير قد أبدى لدى عودته من موسكو إعجاباً شديداً بروسيا الشيوعية فى أحاديثه الى مندوبى الصحف ، فانى أعرف كائنا ما كان ليشاركه فى إعجابه لو كان حياً ، وهذا الكائن هو قطتنا زنبل ، لأن زنبل كانت أرستقراطية بحقيقة معنى الكلمة ، ويحسبها نبلا أنها من مخدرات قصر يلدز . وإنى محدثك كيف آلت الينا : كنا فى الاستانة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وكان أثاث القصر يباع يومئذ بالمزاد العلنى ، فذهبنا نشاهد ماعرض من طرائف التحف ونفائس الكنوز لأن شهرة يلدز بهذه العجائب لاتقل عند الناس عن شهرة مغارة « على بابا » فى الف ليلة ذهبنا الى القصر على غير نية الشراء لأن والدى كان يعارض فى ابتياع شىء من يلدز احتراما لذكرى عاهلها المخلوع . وكان يجله ويرى فيه رمزاً لمجد الامبراطورية العثمانية التى بدأ ظلها يتقلص فعلا بعد سقوطه ، ولكن ما كادت أبصارنا تقع على زنبل القطعة الأنقرية الجميلة حتى وقفت لاتريم عنها انصرافا . وانقسمنا فريقين فريقا من الصغار (نحن) يتمسك بالشراء ، وفريقا من الكبار يعارض فيه ، وانتهى الخلاف طبعاً بانتصارنا ، اذ كان لابد من انقاذ زنبل من الحالة المهينة التى كانت عليها فى تلك الساعة ، فقد وضعت فى قفص ضيق حقير ليشاهدها الرائحون والغادون . . فدفعنا الثمن خمسة جنيهات وحملناها معنا . . أما طرائف القصر الأخرى فكانت عادية لا تزيد على نظائرها فى سائر القصور الملكية . .

مازلت أذكر زنبل خلال ضباب الماضى البعيد ، وهى جالسة على مقعد من القطيفة فى الصالون الصغير بمنزلنا القديم بالمطرية ، ترتل أناشيدها فى هدوء وطمأنينة . . وكم كان شعر زنبل جميلا يحاكى بياضه الناصع الثلج الذى يجلل جبال الاناضول وطنها العظيم ، وكانت نعومة شعرها أشبه شىء بنعومة الزئبق . .

أما عيناها فكانتا تعكسان ماتشاهده على ضفاف البوسفور من خضرة زمردية بديعة . .

وكان لحم كفيها ناعماً طريا الى حد اننا كنا نجد لذة فى القبض على تلك الأكف الظريفة . .

كان صيد الفيران والصراصير من الأمور الحقيرة التى لاتعرض لها زنبل ، كما تفعل ذلك القطط الاخرى . .

لأن تسلية زنبل الوحيدة كانت أن تسحب أمامها خيطا فتجتهد هى أن تقفه بضربات يدها الصغيرة . . وطالما جررنا لها ذيلها لنوهمها انه خيط عادى فكانت المسكينة تصدق ذلك فتوسعه ضربا . .

وفى ذات يوم وقعت حادثة أدهشت من بالمنزل جميعا وهى أن زنبل حامل ! رباه ! كيف زلت زنبل الأرستقراطية ؟ كيف خالطت زنبل قطط الحى وهى كلها قطط عادية شعبية لاتمت لانقرة بنسب؟ ولكن زنبل وكأنها شعرت بالخطيئة الكبيرة التى ارتكبتها ما كادت تضع حملها حتى هجرت صغارها ، فاضطررنا ان نغذى هؤلاء الصغار تغذية صناعية . كانت زنبل على حق فى هجر أطفالها لأن هؤلاء الصغار كن من الصعاليك لايليق أبداً ان ينسبن اليها . . !

بعد مرور عامين على هذا الحادث ، وعودة زنبل الى حياتها الأولى الهادئة ، عزمنا على قضاء بضعة أشهر فى الخارج . فعهدنا الى أحد الخدم برعاية زنبل ، والعناية بوجه خاص بغذائها ، وهو دجاجة مسلوقة كل يوم ، وكانت زنبل لا تأكل منها الا اللحم . . ولكن لدى عودتنا من أوربا فوجئنا بخبر وفاة زنبل ، على أثر مرض لم يمهلها طويلا . . كما قال الخادم المكلف بخدمتها . . أما الحقيقة التى عرفناها بعد ، فهى أن ذلك الخادم الخبيث كان يأكل دجاجة زنبل ويعطيها عظمها فترفضه زنبل . . وهكذا فقدت حياتها ، ولكن فى كرامة وأباء ! كما يفعل الأرستقراطيون الاصلاء . .

كرمة ابن هانىء

حسين شوقى

(١) لفظ تركى معناه البرد بفتح الراء